

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على سيد الأنبياء و المرسلين

حوار مع الشيخ أحمد حبيب

بقلم: صامويل بندِك سوتيلوس

وُلِد الشيخ أحمد حبيب في 18 ديسمبر 1940 بالجزائر، وهو شيخٌ من شيوخ الطريقة العلاوية، وهي طريقة صوفية نشأت في شمال إفريقيا، أو المغرب الكبير، في بدايات القرن العشرين على يد الشيخ الكبير (إمامٌ من أئمة السلوك والتربية الروحية) أحمد العلاوي. ويُعرَف التصوف بكونه تجسيدًا عميقًا لممارسة الدين الإسلامي السَّمح.

أُجري هذا الحوار في 18 فبراير 2011، عقب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وذلك في قرية أولاد علي، الواقعة خارج العاصمة الجزائر، في منزل الشيخ أحمد حبيب. وفي هذه المناسبة، أوضح الشيخ ما تمثّله طريقته الصوفية، وبيّن الكيفية التي تختلف بها رؤيتها الدينية عن النزعات الأصولية المتشددة في الإسلام.

ومن أهم ما أكّد عليه الشيخ أن التصوف السني الأصيل هو جزء لا يتجزأ من الإسلام الأرثوذكسي (السُّنّي)، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. إن الفهم العميق للبُعد الباطني (الروحي) في الإسلام، أو ما يُعرف بالتصوف، ليس ضروريًا فقط لتجاوز الأطروحة العبثية والزائفة تمامًا لما يُسمّى بـ«صدام الحضارات»، بل هو أيضًا عنصر أساسي في مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب، والحركات المتطرفة داخل العالم الإسلامي. كما يقدّم هذا الفهم رؤيةً متكاملة تُمكّن من الانخراط في حوارٍ حقيقيّ بين الأديان، وهو أمرٌ لا غنى عنه في عصر التعدّدية الذي نعيشه اليوم.

ويُعبّر المُحاوِر عن خالص امتنانه لسيدي عبد الكريم (مواليد 1964) على مساعدته في إجراء هذا الحوار، ولا سيما في مهمة ترجمة الحوار (للطرفين).

صامويل بندِك سوتيلوس:

هل يمكنكم، من فضلكم، أن تقدّموا لجمهور الغرب]أوروبا و أمريكا الشمالية[نبذةً عن أنفسكم، وكيف كانت بدايتكم مع التصوف الإسلامي؟

الشيخ أحمد حبيب:

وُلِدتُ في 18 ديسمبر 1940 في ريف أولاد علي بالجزائر. وقبل دخولي طريق التصوف ، كنت مؤمنًا بالله ، إلا أنني كنت غير متعلّم، لا أقرأ ولا أكتب، دون أي تعليم نظامي. وفي مرحلةٍ ما، أدركتُ على نحوٍ عميق أن للإيمان بُعدًا أعمق من ظاهره أو من الاقتصار على الجانب الظاهري ، فاشتقتُ إلى معرفة الله معرفةً مباشرة. وتمنّيتُ أن يُؤخذ بيدي وأن أُرشَد إلى طريق الله.

وقد استجاب الله لدعائي، وذلك بينما كنتُ في خضمّ تدريبٍ مهنيّ في العاصمة-الجزائر. وكان مُدرّس الدورة، سيدي ابن رقوبي، ممثّلًا (مُقدَّمًا) للشيخ علي البوديلمي (1909–1988)، رضي الله عنه. وكان في مركز التدريب مُصلّى نجتمع فيه لأداء الصلوات اليومية، وفي أحد الأيام أخبرنا سيدي ابن رقوبي أنه قد وجد شيخًا مُربّيًا

(مرشدًا أو شيخًا) واعتنق طريق التصوف فشعرتُ أن في ذلك علامةً جليّة على الإرادة الإلهية، وطلبتُ فورًا أن أُلقَّن الطريق - وكنتُ آنذاك في الرابعة والعشرين من عمري. وبعد أيامٍ قليلة من أخذي العهد (البيعة)، زار الشيخ علي البوديلمي-رضي الله عنه- مركز التدريب، حيث نُظّم لقاءٌ على شرفه. وبعد ذلك بقليل، تشكّلت جماعةٌ كانت مهتمة بالدخول في طريق التصوف، فجاء الشيخ علي البوديلمي للقاء المجموعة، وأسس زاويةً، وعيّن سيدي ابن رقوبي ممثّلًا (مُقدَّمًا) عليها.

صامويل بندِك سوتيلوس:

كيف تنظرون اليوم إلى هذا القرار المفصلي بدخولكم طريق التصوف، بعد ما يقرب من خمسة عقود، مع الأخذ في الاعتبار أن الذي يختار ليس "الأنا التجريبية" (النفس) لدى السالك (الفقير)، بل الإرادة الإلهية؟

الشيخ أحمد حبيب:

في الجوهر، قبل لقائي بشيخي المُربّي (المرشد أو الشيخ)، كنتُ في ظلمة، وأسير في طريقٍ مسدود من التمركز حول الخضوض النفسية. أمّا الآن، فقد صار الأمر بعد ذلك تحت التسليم المطلق لله وحده، ومراقبته والحضور معه (مقام الإحسان)، وكلّ ذلك، أمورٌ لا غنى عنها، وفيها بركة عظيمة تعمّ حياة الإنسان بأسرها.

صامويل بندِك سوتيلوس:

الطريقة العلاوية هي فرع من الطريقة الشاذلية الدرقاوية الصوفية، وتُعرَف بأعلامها الكبار الذين يُعَدّون من كبار أعلام التصوف، ومنهم ابن عربي (1165–1240)، المعروف بـ"مُحيي الدين" وبـ"الشيخ الأكبر"، وكذلك في العصر الحديث الشيخ أحمد العلاوي (1869–1934)، الذي تتلمذ على يديه، شيخكم سيدي علي البوديلمي. هل تفضّلتم بالحديث عن هذا الإرث الروحي العظيم وهذا التراث العميق الذي تمثلونه؟

الشيخ أحمد حبيب:

إن جوهر السلسلة الروحية (السِّلسِلة) للطريقة الشاذلية الدرقاوية، والتي تندرج ضمنها الطريقة العلاوية، يعود في أصله إلى رسول الله ﷺ، وليس هو في حقيقته سوى رسالة النبي سيدنا محمد ﷺ وأصحابه، وهي في حقيقتها التصوف بعينه (التزكية الروحية).

صامويل بندِك سوتيلوس:

لقد أصبح كثير من الغربيين، ولا سيما في أقصى الغرب مثل أمريكا الشمالية، ينظرون إلى التصوف على أنه عقيدة ومنهج للتزكية الروحية، منفصل تماما عن العقيدة الإسلامية. هل تفضلتم بالحديث عن هذه الظاهرة الغريبة، وعن مخاطر ممارسة التصوف أو أي طريق روحي أو عرفاني منفصل عن بُعده الظاهري؟

الشيخ أحمد حبيب:

إن اهتمام الغربيين بقلب الإسلام، أي التصوف (التزكية الروحية)، هو نعمة من الله، غير أن رغبتهم في فصله عن الإسلام تُعد خطأً جسيمًا وانحرافًا خطيرًا. فالإسلام السني لا يمكن فصله عن التصوف. التصوف الإسلامي هو قلب الدين الإسلامي. الإسلام لا يكون دينا كاملاً إذا فصلنا التصوف الإسلامي عنه. إن ثمرة الدين الإسلامي هي الشهود القلبي، الذي يمثّل الجانب الباطني (الروحي والمعنوي) للدين.

صامويل بندِك سوتيلوس:

إنَّ الإسلام اليوم ليس عرضةً لهجومٍ مما يُسمّى على نحوٍ مُضلِّل «الأصولية العلمانية» فحسب، بوصفه ظاهرةً عالمية، بل هو كذلك محلّ هجومٍ من الداخل (أي من "الوهابية" أو "الحركة السلفية"). هل تفضّلتم بتوضيح الكيفية التي يختلف بها الإسلام

الأصيل أو السني عن التطرّف، كما يُساء فهمه وتصويره في وسائل الإعلام السائدة في الغرب؟

الشيخ أحمد حبيب:

إن الإسلام دينٌ رحمةٍ للإنسانية جمعاء، كما تُنبـئـنَا الحكمة أن لكل نعمةٍ ردًّا مقابلًا. وإن أعداء الإسلام ظاهرةٌ طبيعية في عالم الوجود الزمني (الدنيا)، وهم في حدّ ذاتهم مظهرٌ من مظاهر هذه الحقيقة. والطريق الوحيد لفهم هذه الظاهرة الزمنية، إنما يكون عن طريق الفهم السليم للتوحيد.

أمّا "الوهابيون"، فهم في الحقيقة مناقضون للحقيقة السالفة الذكر من غير إدراكٍ من قبلهم لهذه الحقيقة، إذ يظنّون خطأً أنهم في خدمة الدين، بينما هم أبعد ما يكونون عن الحق. ذلك أنهم يعتمدون اعتمادًا كليًّا على تأويلهم للإسلام الغير معتمد على إجماع الأمة، متجاهلين الفهم الجماعي المتفق عليه - كما تدركه جماعة المسلمين "عبر العصور" (الأمّة)، وبذلك يكونون قد انحرفوا عن الصراط المستقيم للإسلام. وليس من المأساة القليلة أن يُستقطَب كثيرٌ من أبناء الأجيال الشابة إلى هذا الفكر المنحرف، الذي أسهم للأسف في نشر قدرٍ كبير من الالتباس والعنف باسم الإسلام.

صامويل بندِك سوتيلوس:

كيف ينبغي لمن يعيش في الغرب، ويرغب في تحصيل معرفة صحيحة وأصيلة لطريق التزكية الروحية للإسلام، في ظل تصاعد ظاهرة "الإسلاموفوبيا" القائمة على التصورات الخاطئة؟

الشيخ أحمد حبيب:

إن مسؤولية جماعة المسلمين (الأمّة) ككلّ أن تجمع وتردّ على الصورة الزائفة التي تروّجها وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام (دار الإسلام). كما ينبغي للشخص – القاطن خارج العالم الإسلامي- بدوره أن يبحث عن الحقيقة بنفسه، وألاَّ يعتمد على مصدرٍ واحد للمعلومة، وليهده الله في سعيه. فإن ما هو حقّ وباقٍ لا يُنال عبر هذه القنوات الإعلامية في الغرب، وإن كانت ـ بإذن الله ـ قد تكون نقطة بداية. فالقرآن الكريم هو عبارة عن تجلي الرحمة الإلهية المهداة للإنسانية، وليس نتاجًا لابتداعٍ بشري، وهو زبدة الدين الإسلامي.

صامويل بندِك سوتيلوس:

ما الذي ينبغي على السالكين (الفقراء) أن يضعوه في اعتبارهم وهم يعيشون في عالمٍ يزداد تعقيدًا، مثقلًا بالمسؤوليات والالتزامات التي لا تنتهي، ومع ضيق الوقت يومًا بعد يوم، بحيث لا يكاد يبقى متّسع للاهتمام بالشؤون الروحية، فضلًا عن الجهاد الأكبر (جهاد النفس)، وذلك على خلاف العصور السابقة التي كان فيها المقدّس متغلغلًا في جميع جوانب الحياة؟

الشيخ أحمد حبيب:

أنصح السالكين (الفقراء) بالثبات والاستقامة، والمحافظة على الصلوات الخمس، والمواظبة على الذكر، مع استحضار واجبهم تجاه ربهم (الله)، وتجاه دينهم وتجاه المجتمع الذي ينتمون إليه. نسأل الله أن يهديهم ويحفظهم. وما لا ينبغي أن يُنسى هو دوام ذكر القـلوب والمواظبة عليه.

إنتهى